قبرص،وأحرقت،وعلى كل حال نجا الكونت من غرق السفينة،وسبح مع عدد قليل من الرجال.

الفصل الحادي والخمسين

وطلب من غلايين البنادقة والآخرين الاسراع بالاقلاع بدلاً من التأخر في ميناء دمياط،وقد ذهبوا الى رشيد ثم الى الاسكندرية بعدما عانينا من الخسائر على أيدي المسلمين وفق الطريقة التي أتينا على وصفها قبل قليل.

الفصل الثاني والخمسون

ولما علم المعظم عيسى انعدام نشاطنا،جمع جيشاً من سورية،وأكمل تدمير أسوار القدس،مدينة الرب الحي،مع أنها دمرت من قبل،ودمر الصهاريج التي كانت قد ملئت من قبل، وكان في المدينة أعمدة رخامية فحملها الى دمشق،وزحف من خلال الجبال والحقول في فلسطين فأفسد الأشجار الحاملة للفواكه والأعناب،وعرف الداوية أنه يود القيام بحصار قلعة ابن الرب،لذلك بدأوا في أعمال تهديم برج عثليت في القسم العلوي،لكنه عندما وصل الى هناك فيما بعد،دمرها وسواها بالارض وقطع أشجار الحديقة التي كانت مقامة أمامها،ثم قام أخيراً بمحاصرة القلعة مع حشد كبير من الأتراك،حيث امتدت خطوط خيمهم من النهر حتى أماكن استخراج الملح، ولقد تصرف بهذه القسوة المتناهية صدوراً عن حقيقة معرفته أن العبور السابع الذي سيكون في حوالي شهر تشرين الأول سوف يكون صغيراً،ذلك أننا كنا نعتقد أنه لن يقدم الى عوننا سوى أقل من مائة جندي مع معدات عسكرية وخيول ،لكن حشداً كبيراً من الناس من أهل عكا قدموا الى دمياط، ولقد أخرجوا من ديارهم

بسبب الحرمان الصادر عن الكنيسة،وقد سمح لقسم من هؤلاء بالعودة،وهم الذين كان فقرهم معروف بالنسبة إلينا، وعاد آخرون من دون أذن،ليزيدوا من دمارهم الذاتي،وكان هناك آخرون عادوا الى ديارهم بعدما حصلوا على الأذن من خلال الغش،وكانوا قلة هم الذين امتلكوا ميولاً عقلانية،وبالتالي بقيوا معنا في المنفى.

الفصل الثالث والخمسون

وألقى المعظم الحصار،ونظراً لأنه كان يخشى من هجوم من المعسكر،أمر بانشاء حاجز دفاعي بين الحصن وخيامه،ووضع آلة قذف،وثلاث عرادات وأربعة مجانيق،تولت مضايقة التحصينات وقتالها ليلاً ونهاراً بواسطة قذائف الآلات،ومع هذا لم يستطع زحزحة حجر واحد من مكانه في الأبراج الجديدة وفي السور الوسطي(الفصيل)،وتمكنت آلة قذف المعسكر مع عرادات ومنجنيق أقيما الى جانبها من قذف وتدمير عرادات وآلة قذف العدو، وكان زد على هذا في بيت الداوية أربعة آلاف مقاتل يتناولون الطعام يومياً،فيما عدا الذين يطعمون على حسابهم ذلك أنهم جاءوا من عكا للدفاع عنا أو لبيعنا ميرة،وطلب النائب البابوي بسرعة ملكة قبرص(١٠٣)،والصليبيين،وبارونات سورية، واستدعاهم بوساطة الرسل والرسائل، لتقديم العون لحصن الصليبيين، ونال مقدم (١٠٤) الداوية مع جيش مجرب من الداوية الأذن من النائب البابوي بالعودة إلى القلعة بسبب الحاجة الملحة، وأن يستعد للقتال مع المعظم عيسى، وجلب رجال قبرص كثيراً من الجند والمال، وكذلك أعدّ بوهيموند(١٠٥)، وصاحب بيروت(١٠٦)، وغي صاحب جبلة (١٠٧)، مع عدد آخر من البوليان أنفسهم بسرعة لتقديم العون، وعندما علم المعظم بهذا من خلال اليزك وبعض الخونة الصليبيين أصيب بالرعب، وبدناءة انسحب

من الحصار، وقد عانى من خسائر كبيرة على أيدي الذين كانوا في القلعة، وكانت خسائره في كل من الرجال والخيول، ومثله مثل رجل متفاخر وأرعن هدد بأنه سوف يستولي على القلعة بوساطة الحصار الطويل، غير أن القوة الإلهية أرغمته على التراجع بعدما أحرق معسكره، وكان ذلك في حوالي بداية تشرين الثاني.

وكان الآن عدد كبير من المدافعين عن القلعة قد أصيبوا بالجراح وقلة منهم ماتوا، علّ العلي القدير يتولى حماية بيته، الذي بني من أجل تمجيد ابن الرب، ولكراهية المسلمين، ولكن لمحبة المسيحيين، ذلك أنه خط الدفاع عن مدينة عكا، يارب اجعل حفظ الملائكة ودفاعهم فوق أسواره: « إلى انقضاء الدهر» (متى : ٢٨/ ٢٠) ذلك أننا بالفعل « نمتلك الايمان والثقة بالرب يسوع». (انظر افسوس: ٣/ ١١— ١٢) لأنه وهو الذي بدأ بتدمير أعداء الصليب مثابر على اظهار نعمته، ولسوف يتم ذلك في الوقت الذي يرضاه ويسره، فنحن الآن قد أدركنا بعض البراهين على وجود الانتقام الرباني، فلقد علمنا من كشافتنا، ثم رأينا بوضوح في ساحة القتال عدداً كبيراً من الجثث كانت مبعثرة هناك، وكان بينها جثث ثلاثة أمراء قتلوا هناك، مع مائتي مملوك، كانوا من أبرع الناس في استخدام السلاح، ولم يتوفر لدينا احصاء بعدد رماتهم مع الذين تولوا جرهم مع آلاتهم، والذين قتلوا بواسطة رماة الجروخ من رجالنا، ولم يقل تعداد هؤلاء عن الثلاثمائة، يضاف إلى هذا أنه قتل في أحد الأيام مائة وعشرين فرساً لها أثمان عالية جداً، كان بينها واحداً شري بمبلغ أربعة عشر ألف درهم، وكان السلطان الأشرف ابن العادل، سلطان حلب قد أرسله هدية إلى أحد الأمراء، يضاف إلى هذا عانى المسلمون من خسائر كثيرة أخرى بالخيول(١٠٨) وبالجمال.

الفصل الرابع والخمسون

جرى في شهر تشرين الثاني، تتويج المولى فردريك ابن الامبراطور هنري(١٠٩) في روما من قبل البابا هونوريوس، وذلك وسط أبهة عظيمة للدولة ولرجال الدين، وبوفاق وسلام مع الرومان، ثم إنه حمل شارة الصليب، واستعد للذهاب لمساعدة الأرض المقدسة، وأرسل أمامه دوق بافاريا(١١٠)، الذي وصل إلى دمياط في سنة ١٢٢١، في العبور الثامن مع أسقف باسو(١١١) Passau، ومركيز بادن(١١٢) Baden ، والكونت غي أوف بريين (١١٣) Brienne ، مع نبلاء آخرين، وكان الوصول في شهر أيار، وأوكل الامبراطور منصبه إلى هذا القائد حتى يتولى عبور البحر شخصياً، ووقتها شرع نائب الكرسي الرسولي في تقدير موائمة الوقت، لذلك قام بالتباحث مع الدوق حول شؤون الحرب، الأمر الذي من أجله قد بقي في مصر، وبالإضافة إلى الدوق المتقدم الذكر أثار موضوع وجوب قيام حشد المؤمنين بالهجوم على معسكر السلطان، وذلك قبل أن تفيض مياه النهر حسبما هي العادة، وبناء عليه وعلى خطة أعدها جميع البارونات والفرسان وعامة الناس، بدأنا في إعداد الخيم ونصبها في أعالي النهر فيما وراء المعسكر، وكان ذلك في شهر حزيران، في يوم عيد القديسين بطرس وبولس (٢٩— حزيران)، ولقد عرفنا من خلال ما ذكره أسقف بوفياس المنتخب والآخرين الذين كانوا بالأسر، ومما رواه عدد كبير من الناس، أنه لولا أن تتم اعاقة النائب البابوي بوساطة المعارضة التي أبداها أولئك الذين ذكرناهم أعلاه، ولوجرى تنفيذ أوامره بالزحف ضد السلطان قبل أو بعد فيضان النهر، لكانت مصر قد سقطت وصارت من نصيب الصليبيين، لأن قادة مصر كانوا في ذلك الوقت على خلاف مع السلطان، وتصرف المصريون الآن مثل راحاب العاهرة، التي التمست لطف الرب لشعبها ولها شخصياً، ولبيتها (انظر

يشوع:٢)، فقاموا بارسال الهدايا والأعطيات إلى اسرانا الذين لديهم في القاهرة، وترجوهم لعلهم يحصلون بوساطتهم على الرحمة على أيدي الصليبيين المنتصرين، وبدأ النائب البابوي في اليوم الثالث من عيد الرسول أوكتاف Octave (٦— تموز) صوم ثلاثة أيام، ثم إنه جمع رجال الدين والأساقفة ورؤساء الأساقفة وحمل وهو عاري الأقدام راية الصليب المخلص والحامي، في مسيرة فيما وراء دمياط إلى المعسكر القائم حيث يرتفع النهر، وعاد الملك جون في اليوم التالي إلى دمياط، جالباً معه عدداً كبيراً من الأتباع.

الفصل الخامس والخمسون

قال الرب: « أنا سوف أبدأ وأنا سوف أعمل النهاية، انتبهوا أنا سوف أعمل كلمتي، وكل من سيسمعها سوف تطن أذناه» (الملوك الأول: ٣/ ١١—١٢)، سلطاني هو في ممالك الرجال:«قائلاً رأيي يقوم وأفعل مسرتي. لأنه من مثلي ومن يحاكمني؟ لأنه ليس حكمة ولافطنة ولامشورة تجاه الرب، وإن العالم كله أمامي مثلما ترجح به كفة الميزان وكنقطة ندى تسقط على الأرض عند السحر. ثم من الذي سوف يقول لي: ما الذي صنعته، أو من الذي سوف يعارض حكمي؟ أنا أوجدت داود عبدي وبدهن قدسي مسحته» (إشعيا: ٤٦/ ١٠. ارميا: ٤٩/ ١٩. الأمثال: ٢١/ ١٠٣٠ الحكمة: ١١/ ٢٣؛ ١٢/ ١٢. المزامير: ٨٨/ ٢١)؛ وملك الهنود الذي أمرته بالانتقام للذنوب التي اقترفت بحقي، سوف ينهض ويثور ضد صاحب رأس عدد كبير من رؤوس البهائم، فله أعطيت النصر على ملك الفرس، ووضعت شطراً كبيراً من آسيا تحت قدميه، ذلك أن ملك الفرس قد ترفع كثيراً وتغطرس، وأراد أن يكون ملك آسيا، وسار ضده الملك داود، الذين قالوا عنه بأنه ابن برسترجون، وقطف منه أول ثمار النصر، ثم إنه أخضع الملوك الآخرين والممالك

لنفسه، وحسبما علمنا من تقارير انتشرت بالطول والعرض، أنه ليس هناك من قوة على الأرض يمكنها أن تقاومه، فمن المعتقد أنه المنفذ للانتقام الرباني، ومطرقة آسيا.

الفصل السادس والخمسون

في الحقيقة بعد الاستيلاء على دمياط، امتلك نائب الكرسي البابوي كتاباً كتب بالعربية، جرت قراءته بصوت مرتفع وباختصار بوساطة مترجم، وكان ذلك على مسمع من الحشود، وبعد تقديرنا لقدم تجليده وتأملنا به وبخرائطه، اكتشفنا أنه يتوجب علينا التقدم والزحف، وحمل هذا الكتاب عنوان :« كتاب كليمنت»، وقد كتب كما قيل سماعاً من شفتي أمير الرسل نفسه، من قبل كليمنت نفسه، فيما يتعلق بالوحي الذي عرفه بطرس من الرب فيما بين قيامته وصعوده، ويبدأ هذا الكتاب من خلق العالم وينتهي بإنتهاء الدنيا ، ونقرأ فيه الحلول والأراء الحكيمة فيما يتعلق بالخلاص ، وأقحمت فيه نبوءات ، بات من المؤكد أنها ظهرت مكتملة وواضحة في هذه الأيام ، مع أن بعضها يعتمد على المستقبل ، وقد قيل فيه بين أشياء أن المدينة المائية سوف يتم الاستيلاء عليها من قبل الصليبيين مع مدينة أخرى في مصر ، وأضيف أيضاًأمر الاستيلاء على الاسكندرية ، كما أن الاستيلاء على دمشق لم يحذف ، ذلك أنها المدينة التي عذبت كثيراً وما تزال تعذب عبيد الرب ، وبالاضافة الى هذا ، ورد ذكر ملكين آخرين ، قيل بأن أحدهما سوف يأتي من الشرق ، أما الآخر فلسوف يأتي من الغرب ، الى القدس ، وذلك في السنة التي سيكون فيها عيد الفصح في الثالث من نيسان ، ويتفق هذا الكتاب في كثير من الأشياء مع الكتاب الذي ذكرناه من قبل ، وكتبت رسائل كثيرة حول انتصارات الملك داود ، وهي جميعاً تؤيد هذه النبوءة ، وذلك بالاضافة الى الحكاية

المعروفة كثيراً والمنتشرة في أوساط المسيحيين والمسلمين ، ورأينا أيضاً برهاناً على هذا أن الأسرى المسيحيين لهذا الملك قد جرى تحريرهم من قبل رسل الملك داود في بغداد ، فهؤلاء كانوا قد أخذوا أسرى أثناء حصار دمياط ، وقام ملك مصر بإرسالهم بمثابة هدايا الى الخليفة .

الفصل السابع والخمسون

في ١٧ تموز احتشد الجيش الصليبي عند فارسكور ، وهي قلعة تبعد ثلاثة أميال عن دمياط ، وبعدما تعبأ بشكل موائم في صفوف من الخيالة وأرتال من الجنود الرجالة ، زحف الجميع نحو الأمام مسرعين ، وجرى تقدير تعداد الجيش فتبين في الحقيقة أنه كان هناك اثنتي عشرة مائة مسلحين وفق الطرائق العسكرية ، وكانوا مزودين بكل التجهيزات الضرورية للقيام بالمهمة المعهودة اليهم ، ولم ندخل في الاحصاء التوركبلي مع عدد كبير آخر من الخيالة ولم نستطع التعرف الى تعداد جنود الرجالة المسلحين ، لأن عددهم كان كبيراً جداً ، وشبههم المسلمون وقارنوهم بالجراد لأنهم شغلوا منطقة واسعة من الأرض ، ونعتقد أنه احتشد هناك أربعة آلاف من الرماة ، كان من بينهم حوالي خمس وعشرون مائة مرتزقة ، وكان من الواضح أنه وجد بين الستمائة والثلاثين سفينة كبيرة وصغيرة ثلاثمائة خوذة مع ثمانية عشر غليوناً مسلحاً ، فهذا ما أمكن تعداده ، والى جانب هذا كان هناك عدداً كبيراً من مختلف أنواع المراكب والقوارب التي حملت البضائع والميرة ، وكان عدد الأعداء حسبما سمعنا من اللاجئين إلينا سبعة آلاف من الخيالة ، وكانت ترتيبات القتال كما يلي :

كان النهر على اليمين مغطى كله بالسفن، التي زودتنا بالحماية

وكانت بمثابة سور دفاعي، ومن الجانب الأيسر عمل الجنود الرجالة بمثابة ساتر دفاعي حيث تقدموا نحو الأمام على شكل صفوف بزحف منتظم، وبتشكيلة متراصة، وانتشرت صفوف الخيالة من النهر حتى صفوف الجنود الرجالة على شكل خط وتري، مقدمة بذلك الدعم للرجالة ومتلقيته منهم، وبقي حملة الرماح بشكل تلازمي مع الرماة، للتصدي لهجوم الأعداء برماح مشرعة ومسلطة جاهزة لأي وقت قرروا فيه الاندفاع للقيام باشتباك قريب، وفي مواجهة لخطر الخيول والخيالة تقرر العمل وفق رأي حكيم استهدف عدم تعريض حيوانات النقل والحمولة للعقر، وسار العوام من الناس، بدون سلاح بشكل آمن مع حزم أمتعتهم على طرف النهر، وحمل رجال الذين، وجنود رجالة ونساء الماء للذين كانوا بعيدين في الأمام،أما الذين كانوا أكثر خبرة ضد الكمائن وأعمال الخداع، فقد قاموا بحذر بمهمة التصدي لحملات العدو في المقدمة والساقة، وجرى تعميم أمر شديد قضى باتخاذ الاحتياطات بمنع أي واحد بالمضي أمام الصفوف الأولى، أو أن يتخلف وراء الصف الخلفي الأخير، أو أن يخرق الصف لأي سبب كان، وقام يزك الأعداء باستعراض تقديري لقواتنا من على طرفي النهر واندهشوا تجاه النظام بين صفوفنا والانضباط العسكري، وعبثاً حاولوا الحاق بعض الخسائر بنا، ذلك أن حشد الرماة تولى مقاومتهم، حيث علمنا أن ما من واحد من رجالنا قد أسر في ذلك اليوم، وأيضاً ما من واحد من جنودنا أصيب بجراح، وذلك من الذين مكثوا بشكل دائم داخل خطوط المعركة وصفوفها الجانبية الأربعة، ووزع النائب البابوي الأعطيات بيد كريمة على الفرسان وعلى أتباعهم وخدمهم، وسلح السفن، ولم يبخل بجسده ولا بممتلكاته في سبيل تنفيذ هذا العمل، وأبدى كل نشاط ويقظة كانت بامكانه وقام مع الملك جون ملك القدس ودوق بافاريا، ورؤساء الأساقفة والأساقفة، ومقدمي بيوتات الفرسان ببذل الجهد والتعب في سبيل انجاز هذه المهمة.

الفصل الثامن والخمسون

أرسل ملك مصر في ١٩ — آب أقوى برهان وأعظم دليل على ما امتلكه من قوة آنذاك، وقد أراد هؤلاء حصار شعب الرب بشكل زعديد بما فيه الكفاية، وذلك من الخارج، ومن مسافة، فقد هاجموا الصفوف النائية من الجنود الرجالة، بالنشاب، وقاومهم رجالنا بشجاعة دون أن تخرق صفوفهم أبداً بسبب هذا الهجوم، وحاصرونا في ذلك اليوم بشكل أكثر عنفاً وأرغموا رجالنا على استخدام القليل من النشاب، وجرح في هذين اليومين عدد قليل من الصليبيين جراحات خفيفة، والعدد الأقل هو الذي مات، وبهذا انتزعوا من الأعداء الأمل بنيل النصر، ثم عادوا إلى ملكهم في اليوم الثالث وبذلك فتحوا أمامنا طريقاً أميناً خلال شارمساح، وقد أحرقوا قراهم الدفاعية أمامنا، ومع ذلك فقد وجدنا كميات كبيرة من القمح والشعير والخضار، لابل حتى التبن، وفواكه الحدائق، وهرب السكان مع نسائهم وأطفالهم جميعاً من أمام وجه قوات الرب.

الفصل التاسع والخمسون

في عشية عيد القديس جيمس (٢٤—آب) نصبنا مخيمنا على رأس مثلثي لجزيرة كان النيل عندها ينقسم إلى قسمين، ويفصل المعسكر السالف للسلطان عن معسكرنا، وحيث كان قد أقام هناك بعد الاستيلاء على دمياط، وفي هذه البقعة ينسحب نهر تنيس من المجرى الذي يذهب إلى دمياط، ويشكل معه جزيرة، وتمتد هذه الجزيرة اثني عشر ميلاً في الطول، وهي تحتوي على كثير من القرى، قائمة فوق الماء، وما قام منها على الشاطيء الأقصى معروف أكثر من البقية وأكثر ثراء، ومن بينها أشموم وشارمساح، التي كان فيها قصوراً فخمة عائدة

للملك، ونالت هذه الجزيرة اسماً لها، ودعيت باسم أرض دمياط، ودعي الجزء القائم عبر النهر باسم أرض تنيس، لكن الجزء الأكبر الموجود عبر نهر دمياط، يدعى المحلة، وفيما وراء نهر تنيس، وعلى مقادر سفر يوم واحد نحو الشرق تبدأ قفار الصحراء، التي توجد المياه فيها في أماكن محددة، وهي كافية للناس وللحيوانات، إذا مازيدت بالحفر، وهي تنتهي عند الدارون وغزة، وبما أن بابليون (الفسطاط) قائمة في الجنوب، كانت السبب في تسمية بلاد مصر ببلاد بابليونا، ومخطط هذه المدينة مقسم إلى ثلاثة أقسام، وهي تشكل مثلثا،، وقد بنيت مدينة بابليون نفسها فوق النيل، وهي مديدة في طولها وعرضها، وفيها شوارع ضيقة وفيها كثافة سكانية كبيرة، وهي مكتظة بسبب الأعداد الكبيرة من السكان، ويوجد فيها كثير من الكنائس العائدة إلى المسيحيين، وحشود كبيرة من هؤلاء الناس أنفسهم يخدمون أمير البلاد ويدفعون الجزية، وفيها تجد المصنوعات والتجارات من «ليمانيا Leemanni (أسوان؟) والحبشة، وليبيا وفارس وبلدان ومناطق أخرى، ومن الجانب الآخر المواجه لدمياط وعلى مسافة قرابة الميل، تمتد القاهرة وتنتشر في أبنيتها وشوارعها العريضة، وفيها أبنية فخمة، فيها يسكن أعيان البلاد والنبلاء بين السكان، ولاتنحدر هذه المدينة تماماً نحو النهر مثلما تفعل بابليون، لكن يوجد بينهما مساحة مزروعة بما يشبه الجذور من النباتات، وعلى مسافة يقوم برج المراقبة المرتفع، وهناك تقوم القلعة الملكية، وهي واضحة للناظر إليها، محصنة ومحمية بشكل جيد بوساطة أبراج عظيمة، والأبنية معدة بطريقة مضاعفة ثلاثيا مسايرة للشكل المثلثي، وتمتد الآن الأسوار وتنزل من القلعة لتقوم بالدوران حول كل من من القاهرة وبابليون، وهناك فسحة رملية قائمة بين هذه الأبنية الثلاثة، فيها يمكن لجيش كبير أن يقيم.

الفصل الستون

ويشيرون إلى وجود كنيسة مريم المباركة فيما بين القاهرة وبابليون، فهناك يحكى أنها توقفت مع الطفل يسوع، عندما هربت إلى مصر، ووقتها سقطت أصنام مصر، وتقوم القاهرة على مسافة سفر ثلاثة أيام من دمياط، ومن القاهرة إلى حديقة البلسم هناك مسافة ميل، وهذه الحديقة التي فيها رمل زيتي مطوقة بسور، وفيها نبع في وسطها، ومنها صدرت حكاية الناس القدماء التي انتشرت في الخارج بمثابة قصة مشهورة، أفادت أن العذراء الرائعة جعلته ينبع ويجري إلى الأمام بوساطة صلواتها، فغسلت فيه ثياب الرضيع المخلص، والحديقة مزروعة الآن على شكل كروم، والجذع في هذه الحديقة له سماكة شجيرة. وتنموا الأغصان من الجذع إلى ارتفاع ذراع على شكل جوز، ولحاء الجذع عقدي ومخطط، ولونه أقرب إلى البياض، ويدعى الخشب باسم «خشب البلسم» والبذرة باسم «ثمرة البلسم» وهي تتناثر، وتعطي ورقة تشبه ورقة عرق السوس، تدعى باسم «ورقة البلسم» وكذلك باسم« عصير البلسم» ذلك أن المزارعين يأتون إلى الأغصان، ويقطعون اللحاء في أجزاء محددة، حيث يتدفق البلسم، وهكذا يجمع السائل بدرجات ، وقد يتبدد خلالها،ويجمع البلسم في الخريف بالطريقة التالية: يبرم الغصن ثم يخدش بمسمار، وتتساقط من خلال الفتحات الصغيرة نقاط تجمع وتحفظ في وعاء، وبعد هذا تذاب لمدة عشرين يوماً في الشمس، وبعد ذلك تجمع قشدتها فوق النار، وتوضع وتصب داخل قوارير، لأنه من الخلاصة الأصيلة، قليل من البلسم غير المخلوط هو الذي يبقى بعد التصفية، غير أن الباعة ثم الذين يعاودون البيع يقومون بالعادة بمزجه بخلاصة زيت الصنوبر أو الراتينج، وبذلك يغشون الشراة، ولذلك من النادر وجود الصافي منه على أيدي الباعة، واعتاد السلطان توزيعه في

قـواريربين أمـراء الأرض بمثابـة هديـة عظيمـة، وصاحـب الحديقة هـو مسيحي يعمل تحت اشرافه عمال مسيحيون ومسلمون.

الفصل الحادي والستون

ودون القـاهـرة هنـاك جزيـرة تمتـد لمسـافـة ثـلاثة أميـال بـالطـول وبـالعـرض ، وهنـا ينقسـم مـاء النيـل الى قسمين ، حيـث يـلامـس شواطىء دميـاط من أحد الجوانب ورشيـد من الجانب الآخر ، وكـانت رشيـد مـدينـة كبيرة ، وهـي الآن مهـدمـة ، وهـي قـائمـة فيما بين الاسكنـدرية ودميـاط ، لكنها أقـرب الى الاسكندريـة ، وعلى مسافـة يـومين من القـاهـرة ، وعند رشيـد وفوقهـا يصبـح النهر أوسـع والماء أعمق ، والميناء أكثر سكـوناً مـن دمياط ويستقبـل هذا الميناء سفناً أثقل حمولـة ، ومن الممكن مركـزة جيش كبير فوق الجزيرة المتقـدمة الذكر ، وعندما كنا عند رأسهـا أثناء حصار دمياط ، رغب السلطان في انتـزاع النهـر منا ، و وغـالبـاً مـا حـاول ، لكنه أخفـق ، ، وعبثـاً حـاول جعل ميـاهه تتـدفق في قنـاة، وبعد انفـاق عظيم تـرك مجراه للطبيعة ، ومـن بابليـون الى الجانب الأعلى الى ليبانيـا ، حراثـة الأرض محدودة على جانبي النهر ، وهناك قفـار واسعة على كلا الطرفين ، وفي ليبانيا وفرة من أنواع التوابل التي تصدرها الى الخارج ، والتي يحملها مختلف تجار المملكة للبيع .

الفصل الثاني والستون

ووراء ليبانيـا ، تمتلـك الحبشـة أراضي واسعـة جـداً ، وفيهـا مـا لا يحصى تعـداده من السكـان المسيحيين ، قسم منهـم واقع تحت حكـم ملوك مسيحيين ، وقسـم تحت حكم المسلمين، وهنا يـوجد أهل النـوبة

الذين يمارسون القداس عند المذبح ، ولديهم الوظائف اليعقوبية المقدسة الأخرى : والنوبيون هم لوحدهم الذين يطبعون على الصغار بوساطة حديده محماة ثلاث طبعات لصورة الصليب ، على الجبهة وقرب العينيين على كلا الجانبين ، ومع ذلك يتعمدون ، وتستخدم الفئة الأولى والفئة الثانية الكتابة الكلدانية ويستخدمون الخبز المخمر من أجل القربان المقدس ، ويرسمون علامة الصليب بإصبع واحدة، ويقولون بأن طبيعتين قد اتحدتا في طبيعة واحدة للمسيح ولعلهم يستخدمون بشكل ملتبس اسم طبيعة ، ولهذا يأخذون بالدرجة الثانية كلمة «طبيعة » بدلاف من كلمة «شخص»

الفصل الثالث والستون

الجورجيون والاغريق متفقون في كل شيء فيما يتعلق بالطقوس المقدسة ، لكن للجورجيين كتابتهم الخاصة ، وعندما كنا نتفحص بدقة كتبهم على جبل القديس سمعان العمودي ، حيث لديهم هناك كنيسة خاصة بهم ، عرفنا من خلال المترجم أن لديهم الترتيب نفسه بالنسبة للأناجيل لدى اللاتين، وشريعة الأناجيل موضوعة على أقواس أعمدة كما نفعل ، وترتيب الرسائل الانجيلية للقديس بولص هي تماماً عندهم كما هي عندنا ، فهم يضعون رسالة القديس بولص الى الرومان قبل الرسائل الأخرى

الفصل الرابع والستون

وللموارنة بطركيتهم الخاصة بهم على طرف جبل لبنان ، ولقد تسلموا خطة طقوسهم اللاهوتية من البابا إنوسنت في المجمع الأخير الذي عقد باللاتيران ، وهم متمسكون بها بقدر ما تسمح لهم

كتاباتهم التي هي بالكلدانية ، أو قريبة من الكلدانية (السريانية) ، ومتصل بهؤلاء الناس على الجانب نفسه من الجبل الباطنية Neo-phorites الذين يخفون عقيدتهم ، ولا يشرحونها لأولادهم ولأحفادهم حتى يبلغون الثلاثين من العمر ، وانها لعقيدة شريرة العقيدة التي ترغب بالبقاء سرية ، وأن لا تظهر الى النور ، وعندما أردنا أن نعرف ، عندما كنا مارين خلال تلك المنطقة ، لماذا لا يبيحون معرفة شريعتهم لزوجاتهم أو لبناتهم أو أخواتهم ، إلا في ذلك السن ، أخبرنا واحد من شيوخهم مجيباً بأن النساء قد صنعن من قبل الشيطان ، وقد رددنا عليه قائلين « عندما تعانقون نساءً من هذا النوع، ألا تعانقون وقتها الشيطان ؟» وبناء عليه ابتعد عنا مضطرباً ، ولا شك أن المسيحيين يشعرون بالأسف لامتلاكهم مثل هؤلاء الجيران

الفصل الخامس والستون

وللأرمن كتاباتهم الخاصة بهم ويجلس الكهنة منهم في الحقل الى جانب سنابل القمح التي يرغبون في أن يصنعوا منها الخبز الفطير لحشودهم وهم ينقونها ويضعونها جانباً بعزلة عن المحصول العام ، كما يطحنونها منفصلة ، وفي اليوم الذي يودون أن يكرسوا فيه جسد الرب ،مع غناء المزامير أمام المذبح ، يعدون الطحين ويرشون عليه الماء ويمزجونه ، من أجل خبز فصح حمل المسيح ، وهذا يكون وفق الشكل اللاتيني ، ويحتفلون بهذا بتقوى عظيمة ، ومهما يكن الحال، إنهم يستحقون من أجل ما يلي لوماً عظيماً : فهم لايحتفلون بالميلاد معنا، بل يفلحون ويحصدون في ذلك اليوم بينما تقوم نساؤهم بغزل الصوف وتمشيطه، ويسمون يوم عيد الغطاس باسم يوم «المعمودية»، ويحتشدون في هذه المناسبة المقدسة ويتجمهرون مع كثرة كثيرة من الناس، ويحتفلون بميلاد الرب مع عيد الغطاس، ويقولون بأن

الرب قد ولد في اليوم نفسه الذي تعمد فيه فيما بعد، إثر مضي عدة سنوات، ويقولون إنهم يخضعون للشريعة الرومانية، ولديهم جاثليق هو الأول والرأس بينهم، وهم يطيعونه في جميع الأشياء.

الفصل السادس والستون

وأثناء توقفنا في أنطاكية تفحصنا النساطرة الذين لديهم كنيسة خاصة بهم هناك، وهم يقولون بأنهم يعتقدون بأن الطبيعتين قد اتحدتا في شخص المسيح، ويعترفون أن العذراء المباركة هي أم الرب وأم انسان، وأنها حملت انساناً ورباً، الأمر الذي انكره نسطور، لكن هل يؤمنون بقلوبهم مثلما يعترفون بألسنتهم، الرب يعلم.

الفصل السابع والستون

ويستخدم السريان الكتابة الاغريقية، وبها ينشدون، ويقدمون الأضحية الطقوسية، لكن اللغة العربية هي الدارجة بينهم مثل المسلمين، ويستخدمونها بصكوكهم وبرسائلهم التي يكتبونها.

الفصل الثامن والستون

وأخذ اليعاقبة في معظم أجزاء مصر بالختان، لكن الذين مكثوا بين الميديين والفرس هم راضون بالتعميد.

الفصل التاسع والستون

للروس لغتهم الخاصة، لكن فيما يتعلق بالطقوس المقدسة، وجدناهم مثل الاغريق في كل شيء، وهذه الأنواع المختلفة من المسيحيين مختلطون

مع المسلمين في جميع أرجاء آسيا، ولهذا لايمكن لهذه الأمة الكافرة أن تسوغ موقفها على أساس الجهل!

الفصل السبعون

إننا لم نقم بهذا الاستطراد الطويل بدون سبب، وكان القصد أن نظهر بوضوح للمؤمنين موقع مصر، ومجرى النهر، وكذلك الأنواع المختلفة من المسيحيين الذين يسكنون في آسيا، والآن في عودة إلى سياق تاريخنا دعونا نخضب هذا الكتاب بالدموع، وبالنحيب، وبالأسى من أجل خسارة المسيحية ومالحقها من عار.

لقد كان الزحف إلى بلدة شارمساح المشهورة — الذي أتينا على ذكره من قبل — مفيداً لجيش المسيح، ولهذا حدث بعد سقوط دمياط، أن نظر السلطان بحكمة وتفكر بما يمكن أن يحدث في المستقبل، فقام بتدمير البلدة، وكذلك قصره الجميل القائم على النيل، وخلف هذه البقعة ينحرف النهر، ثم ينعطف عائداً، وهناك أيضاً نهر صغير يأتي من جزيرة المحلة، ويصب فيه، واعتماداً على عمق الماء الذي كان يزداد هناك أثناء انتشار الصليبيين، كان من الممكن لهذا الماء حمل الغلايين والمراكب الأخرى ذات الحجم اللطيف المعتدل، وعندما رأى قادتنا الحال، لم يبالوا ولم يعبأوا وعبروا المكان مسرعين قاصدين رأس الجزيرة، وهرع الناس أيضاً بتشوق مثل الطيور القاصدة مصيدتها والأسماك المسرعة نحو شباكها، ذلك أنه أعلن لهم كذباً بأن السلطان يستعد للفرار، وكان هدفهم الحصول على الأسلاب، وكذلك أملهم، لكن عندما سمع ملك مصر ووصله الخبر بأن شارمساح قد أخليت من الخلف، ضم عساكر رجالته ووحدهم مع فرسان مملكته، والذين جاءوا من القاهرة، وبشكل خاص الذين جاءوا من الاسكندرية، وجعلهم يهاجمون الذين كانوا

يتقاطرون وصولاً ، وفي هذا الوضع كان أسرانا قد قدروا حقيقة إخلاء القاهرة من سكانها، لذلك أعدوا خطة للاستيلاء على الأبراج وقت وصولنا، حتى يقوموا بفتحها للذين كانوا يقتربون، لكن الحكمة الربانية التي برحمة منها «سمعت أنين الأسرى الذين كانوا في الأغلال» (المزامير: ١٠١/ ٢١) وشهدت جهود وحزن الذين كانوا في الأصفاد، أطلقت سراحهم من خلال أسانا وأحزاننا.

الفصل الحادي والسبعون

وفيما كان هذا يحدث في مصر قام الملك الأشرف ملك الرها، مدينة الميديين، مع المعظم عيسى صاحب دمشق، مع صاحبي كل من حمص وحماه، مع حشد كبير جداً من الفرسان جمع من جميع مناطق الشرق، بالاجتماع في حمص، ونتيجة لهذا أصاب رعب شديد أهل انطاكية وعكا، والمدن الأخرى القائمة على الساحل والتي كان محاربوها غياب، لأنهم ذهبوا للمشاركة في حملتنا، وشعر الذين كانوا في صافيتا وطرابلس بخوف خاص تجاه هذا الاحتشاد.

وتناقش الأمراء المذكورين أعلاه بإخلاص وجدية لوقت طويل حول هل عليهم التوجه لعون مصر بأنفسهم، أو الأفضل شطر الجيش الصليبي بوساطة محاصرة احدى قلاعه ، وأثرت عليهم قوة الملك داود وضغطت، لأنه كان المنتصر على ملك الفرس في أراضي الفرس، ولأنه كان يعمل بنشاط في المناطق التابعة لبغداد، وخشية منه، كانوا يخشون الابتعاد عن ديارهم، كما قدروا أن الاستيلاء على قلاع الاسبتارية أو الداوية لن يكون بالأمر الهين في وقت قصير، وأخيراً نجح رأي الذين رأوا القيام بزحف سريع إلى مصر، خاصة لأن أخاهم أرسل لهم مراراً رسائل على بريد الجمال يرجوهم القدوم إليه، وأضاف أن الصليبيين قد تمركزوا الآن في

مكـان لايمكنهم مغـادرتـه من دون مخاطـر، وأنـه إذا لم يستطيعـوا لـدى قـدومهم التغلب عليهم، يمكنهم على الأقل الإعداد لعقـد صلح معهم، وكتبت ملكة قبرص إلى النائب البابوي وكتب رهبـان الاسبتارية والداوية إلى مقـدميهم حـول هذه العسـاكـر وحول خططهـم، وحثوهما على عـدم التراجع من دميـاط، وأنهما إذا مـا خـرجـا وتـراجعـا عليهما البحث عن أمـاكن آمنـة لنفسيهما، لكن الآن حسبما قضـت ذنـوبنـا، نأت الآراء الحكيمـة وابتعدت عن قـادتنا، وكـان مثلهم مثل يـوليوس قيصر، أنـذروا وحـذروا مراراً، ومثلهم مثـل الاسكندر المقـدوني أنـذوا وحذروا في هـدوء الليل وصمته، ولقـد أهملوا اتخاذ الاحتياطـات ضد المخاطر الفعليـة، وقد تكلمم الـرب نفسه من خلال مـوسى إلى بني اسرائيل قـائلاً:«لاتصعدوا ولاتقـاتلـوا، لأنني لست معكم، خشيـة أن تنهـزمـوا أمـام أعـدائكم».(العـدد: ١٤/ ٤٢)، ومع هـذا ذهبـوا، وسقطـوا مهـزومين مقهورين، وتأمل الملك جـون بالقضية وتعمق بـالتفكير حولها، ورأى أن من الحكمـة وجـوب قبـول الاقتراح الـذي غـالبـاً مـا تقـدم بـه العـدو، وتـرجيحـه على مـا رآه الشعب المؤمن، لأن هـذا الشعب اقتيـد في زحف طـويل، وبـات الآن عرضـة لتقلبـات الأحـداث، لكن النائب البـابـوي الأعلى حرم عقد أية اتفـاقية دون الحصول على موافقة الكنيسة الـرومانية، ثم إن الامبراطور لم يـأذن من خلال رسائلـه المختومـة بالـذهب بعقد أي صلح أو بالإعداد لأي معاهدة مع المسلمين (١١٤).

الفصل الثاني والسبعون

وقوينـا بالـوقت نفسه تحصينـاتنا بخندق عميق، ومن الجانـب المقابل قـام خصومنـا بإقامـة سور تـرابي وسواتـر دفاعيـة على الطرفين المتقـابلين للنهـرين، ووضعـوا عليهم آلات قـذف وعـرادات ومنجنيق مع مخرطـة، وبـذلك سببوا لنـا جـراحات خطيرة أصـابت النـاس، والحيوانـات التي

كانت مأخوذة للسقاية، وازدادت قوى خصومنا يومياً، وأخذ جمعنا يتبدد مبرهناً على عدم إيمانه، ومع اقتراب موعد العبور، إزداد الجبن بين الذين هجروا المعسكر وتخلوا عنا بشكل مكشوف أو مخادع، وعدد كبير من السفن التي ذهبت إلى دمياط لجلب الميرة، لم تتمكن من الرجوع، وفي اليوم الثامن عشر من آب جرى الاستيلاء على أربعة من غلايينا أو أنها أغرقت في النهر، ومنح هذا شجاعة إضافية إلى الأعداء، لأن السلطان كان قد غرق بعضاً من غلاييه على طول مجرى النهر، الأمر الذي تقدم لنا ذكره أعلاه، وكذلك دون معسكرنا خلال جزيرة المحلة على ضفاف النهر بدون علم منا، وقطع هذا العبور والجواز بالنسبة لرجالنا، وبذلك لم يعد بإمكانهم الذهاب لاصعودا ولا هبوطاً، يضاف إلى هذا، بما أن حشداً كبيراً من الرجال المسلحين قد جرت مركزتهم بذكاء هناك، وتولوا أعمال الحراسة ليلاً ونهاراً، وراقبوا كلا الشاطئين حتى دمياط، لم يعد بإمكان قومنا إرسال الرسل أو استقبالهم.

الفصل الثالث والسبعون

ومن اليوم الذي خسرنا فيه النهر، أخذ رجالنا يجتمعون بشكل متواصل للتشاور فيما بينهم، وليروا ما هو الأكثر مواءمة لهم: الانتظار في المعسكر حتى وصول الغلايين التي وعد الامبراطور بإرسالها، أو الخروج، دونما اعتبار للخسائر مهما كانت، وذلك بسبب اضمحلال مخزوناتنا من الأطعمة، وارتأى الجزء الأكبر رأي الخروج، الذي كان أعظم خطراً بسبب وصول الأعداء، وقرار الإعاقة المائية، لكن أحد الناس (أولفر نفسه) من الأعضاء الأدنى، وكان قد رأى وسمع هذه الأشياء، وتولى وصفها بشكل جاف، لكن بقلم صادق، اقترح اتخاذ داود مثلاً، الذي اختار بين ثلاثة أشياء، كل واحد منها كان صعباً وشديداً، فهو لم يختر الجوع لمدة سبع سنين، ولم يختر أن يغلب من قبل العدو لمدة ثلاثة أشهر

بل اختار ما كان هو الرغبة العامة للملك وفقراء الناس: الوباء لمدة ثلاثة أيام؛ وعندما سئل عن رأيه وما يقصده أجاب: بما أن الضعفاء والعاجزين الذين كانوا هناك لاتوجد سفن كافية أو حيوانات لنقلهم، ينبغي انتظار وصول المساعدات في مكان حصين، لاسيما وأن المؤن، إذا ما وزعوها بحذر يمكن أن تكفي لمدة عشرين يوماً، ومع هذا لم تقبل هذه الخطة، بل قبلت خطة المغادرة، وأصبحت مع حلول الليل أكثر قبولاً، وفي هذا المقام ساد موقف أسقف باسوا Passau مع رأي البافاريين.

الفصل الرابع والسبعون

وبناء عليه حدث في يوم ٢٤ آب، ومع الهزيع الأول من الليل، أن أخليت الخيم ، من قبل أوائل الناس، الذي اتبعوا مارغبوا به، وليس ما أوجبه العقل، وألقوا النار في الخيم، ثم فعل الآخرون مثلهم بحماس، وكانوا بذلك كأنما يعلنون عن هزيمتهم الخاصة، ويدعون المصريين لمطاردتهم، وبالوقت نفسه وصل النهر إلى أقصى درجات فيضانه، لابل ارتفعت مياهه وتدفقت حتى أعلى مما هو معتاد، فقد غمرت الحقول، وجاء الملوك السالفي الذكر من خلال الصحراء ووصلوا عبر نهر تنيس إلى أشموم، وهناك بني جسر، فتوقفوا وعسكروا، وأضيف إلى سوء حظنا في ذلك اليوم أن الناس كانوا في ذلك اليوم مخمورين كثيراً، نتيجة شربهم الخمور التي كانت هناك بكميات وافرة، وكان من غير الممكن حملها معهم أثناء التراجع، وبما أنها عرضت لمن أراد بدون ثمن ، فقد قهرت الذين كانوا غير متيقظين، وهم الذين ظلوا غارقين بالنوم داخل المعسكر أو الذين تمددوا على الطريق، وكانوا غير راغبين بالنهوض، ولقد تخلوا في معظم الأحيان عنا، وتخلفوا إما لأنهم انقطعوا أو لأنهم أسروا، ووصل آخرون إلى الأماكن التي فاض عليها النهر في ظلمة الليل، وناضلوا

بتعاسة وسط السباخ العميقة، ولهذا تخلفوا خلف الآخرين، وسقط آخرون في السفن وضغطوا عليهن بشدة بسبب أوزانهم فغرقن، وفقدنا في الليلة نفسها جمالاً وبغالاً كانت تحمل أثقالاً، بما في ذلك أوعية فضية، وملابس وخيم الأثرياء، والذي كان أكثر مأساوية فقدان نشاب الدفاع، وتولى الداوية جلب قوات الساقة في ظل مخاطرة عظيمة، ومكثوا بشكل متواصل مع بعضهم بمثابة حماية للذين مضوا في الأمام، لأنهم كانوا مستعدين بالأسلحة، وكان الذين تقدموا في الأمام، قد ساروا على طرق مختلفة، فضاعوا خلال ظلام الليل مثل أغنام شاردة، وأخبر المصريون بفرارنا بوساطة النار والدخان، فقاموا على الفور بملاحقتنا، ووصلوا إلينا بسرعة أكبر من المتوقع، وأنزلوا بالصليبيين خسائر من غير الممكن وصفها، ولم تكن أقل خطراً وأذى مما تم تحمله من قبل الذين ذهبوا بالسفن على طول الشاطىء وكانت سفينة النائب البابوي تحمل عدداً كبيراً من المرضى، وكذلك كميات من المؤن، وكانت محصنة إلى أبعد الحدود برجال مسلحين ورماة، وبدت وكأنها قلعة، وتولت بشجاعة حماية الغلايين التي بقيت بشكل طبيعي مع بعضها متراصة متقاربة، غير أنها سارت بسرعة كبيرة جداً، ولعل ذلك كان بسبب قوة التيار، ولأنها ابتعدت بشكل رهيب عن الجيش البري، لم يعد بإمكانها تزويدنا بالطعام في الوقت المناسب، فضلاً عن هذا، ابتعدت واحدة من سفننا كانت مليئة بالمقاتلين الألمان، كثيراً عن سفينة النائب البابوي، وطوقت من جميع الجهات بغلايين الأعداء، وبعدما تمكنت من إغراق واحد من الغلايين في المياه العميقة، بعد دفاع طويل، اشتعلت فيها النيران فدمرت المقاتلين الذين كانوا فيها، وكان هناك مركب عائد للنائب البابوي يحمل كثيراً من البضائع الدنيوية، وغليون صغير عاد بملكيته للداوية، كان فيه خمسين عرادة إلى المعدات الأخرى التي يحتاجها الرجال الشجعان، قد تم الاستيلاء عليها، وخرجت عن ملكيتنا.

لماذا أطيل أنا الوقوف للقيام بتعداد الخسائر التي سببتها تلك الليلة لنا؟ « أما ذلك الليل فيمسكه الدجى ولايفرح بين أيام السنة ولايدخلن في عدد الشهور. هو ذا ذلك الليل ليكن عاقراً لايسمع فيه هتاف» (أيوب : ٣/ ٦—٧)، وسارع في تلك الليلة ملك مصر بارسال الرسل للقيام بفتح بوابات السدود وتدميرها وكذلك أقنية جر المياه، التي كان من الممكن أن تكون ممرات لنا، وليلة هذاالعمل لها ذكراها عند المصريين وعندنا أيضاً، عندما فاضت أطراف النهر الى حدود كبيرة وتدفقت الكميات الهائلة من المياه عبر منحدرات خزانات المياه ومن خلال الاقنية فسببت تطرية الأرض، هذه الأرض التي كانت جافة بسبب طول انقطاع الماء، ثم إنها تحولت إلى أرض موحلة سميكة أمسكت بشدة بحوافر الخيول وجعلت الفسحة المفتوحة للحقول لايمكن جوازها، ولقد أعاقت كثيراً كل من الخيول والركاب.

الفصل الخامس والسبعون

في حوالي الساعة الأولى من يوم الجمعة التالي (٢٧— آب) ظهر هناك فرسان الترك المرعبون والذين كانوا في أعداد كبيرة، وشرعوا بمناوشتنا من جانب الميمنة وذهبت الغلايين المزعجة صعوداً ونزولاً من على اليسار، وقام فيلق من الزنوج بالزحف على الأقدام، وبالضغط علينا من الخلف بقسوة متناهية، وكان هؤلاء يستخدمون الأماكن السبخة من أجل المعسكرة، وجاء أيضاً تشكيل تابع للعدو على شكل محدودب، وواجهنا هذا التشكيل من الأمام، وبذلك حرمنا من الراحة، وفي هذه الأثناء قام الملك جون بهجوم على الأتراك الذي كانوا مواجهين له، ثم عاد إلى الخط القتالي المخصص له، ولم يتهاون الداوية وإسبتارية القديس يوحنا الذين كانوا آنذاك متحدين معهم بالتعامل مع رعونة الزنوج، وقاموا وهم يقتلونهم بالضغط عليهم حتى أرغموهم على القفز إلى الشاطىء

مثل الضفادع، وكذلك قاموا بصدهم وردهم إلى الخلف عندما أرادوا الوصول إلى الشاطىء من جهتنا، وهكذا كان هناك حوالي الألف من الحشد العظيم يسبحون مبتعدين أو يعانون من الجراح، أو يموتون، وبسبب هذه الانتكاسة التي عانى منها أعداؤنا تراجعوا قليلاً، وبما أننا لم يؤذن لنا بالتقدم نحو الأمام، أمر الملك بنصب عدد قليل من الخيم، بعضها بقي في الخلف، أو أخذ إلى الأمام، ومع ذلك بقي أعداؤها خلال ذلك النهار كله على مقربة منا، وكانوا يهاجموننا بشدة متناهية بوساطة نشابهم، وقد وضعنا جنودنا الرجالة في مواجهتهم بمثابة ساتر دفاعي، وكذلك استخدمناهم، لأنهم أعادوا رمي النشاب الذي وجه ضدنا، وعمل فرساننا تحت الوزن المستمر لدروعهم وسوابغهم،وأفادوا بمثابة حماة للجنود الرجالة، وفتح المصريون في الليلة التالية بوابات الفيضان، وجعلوا المياه تتدفق فوق رؤوس الذين كانوا نائمين، ولاندري هل فعلوا ذلك بناء على أمر السلطان، أو بدون معرفته، وقبل انبلاج نور الصباح، عندما كان الظلام مايزال يغطي الأرض، جاء الجنود الرجالة من الزنوج الذين نجوا من قبضة النهر، وكانوا راغبين بالانتقام للخسائر التي لحقت بهم، واحتشدوا مثل الجراد، ومع أنهم كانوا أشبه بالعراة، فقد هاجموا صفوفنا الخلفية، وكان من الممكن رؤية فرساننا ومعهم خدمهم يحاولون الفرار، وسط حشد متلاصق من الناس، وبما أن عوام الناس كانوا غير مسلحين، فقد أظهروا جبنهم بشكل واضح تماماً، غير أنهم كانوا محاصرين من جميع الجهات بالماء وبالأعداء، ولذلك لم يجدوا مكاناً يفرون إليه، وقام مقدم الداوية مع صفه القتالي الذي كان يقوده شخصياً بالالتفات نحو الذين كانوا يقومون بأعمال المطاردة، وأرغمهم إما على التوقف أو على التراجع، وقد فعل ذلك بعدما رفع رايته.

الفصل السادس والسبعون

في هذه الآونة أقنع الوضع اليائس الذي بات مفهوماً قادة الحشد ليقوموا بارسال رسل يعرضون المصالحة، لكن إمبرت Imbert ، وكان مقترفا عظيماً للشرور، أخذ برفقته الذين أمكنه أن يهربهم معه، والتحق بالأعداء ، وبين الوضع المأساوي اليائس الذي كنا فيه، إلى السلطان، وكان إمبرت هذا أسوأ الخونة على الإطلاق في وقته، ومع هذا أصغى السلطان بأناة إلى الرسل، وبانتظار التأكيد، أمر رجاله بالتوقف عن إزعاجنا، مع أن أخاه، وكذلك صاحب حمص بشكل خاص — الذي كان معادياً إلى أقصى الحدود للاسم الصليبي— حاولاً أن يجعلاه يعدل عن الاتفاق، قائلين بما أن الفرنجة تحت الحصار من جميع الجهات بوساطة الماء، فلايمكنهم النجاة، لكنه هو نفسه لكونه رجلاً حكيماً ولطيفاً متسامحاً، رغب في الإعداد للتصالح أكثر من الرغبة بسفك الدماء، ولهذا عقد اجتماعاً سرياً مع أخويه وكبار رجال مملكته، وضرب مثلاً بملك الفرس، الذي كان عاقلاً جداً ومجرباً بسبب ما واجهه من أحداث كثيرة، وقد حاول خلع نير التبعية أو العبودية لملك بابل نفسه وللملوك الآخرين في آسيا، فقد هزمه الملك داود على أرض المعركة، وانتزع منه بلاد فارس بدمر أعظم مدنها وأكثرها ثروة، وبعد هذا تكلم رسل السلام من على الجانبين، كما جرت العادة في قضايا من هذا النوع، وقلبوا أوجه المسائل جميعها خلال السبت والأحد، وتابعوا حتى المساء، لكنهم لم يتوصلوا إلى شيء محدد.

الفصل السابع والسبعون

في ذكرى اليوم الذي قطع فيه رأس القديس يوحنا المعمدان (٢٩—

آب) وفي حوالي الساعة الثانية عشرة، قام طرفنا وقد شعر بالضيق لنقص الطعام والأعلاف، وأكثر من هذا بشكل خاص بسبب الحجم العظيم للماء، فقرر أنه من الأفضل والأصون للكرامة العيش بسعادة أو الموت بشجاعة في الحرب، وذلك بدلاً من الهلاك بشكل مهين في الفيضان، وعلى هذا عندما نهض جميع الفرنجة للحرب تعبأت الصفوف هنا وهناك، ونظروا نحو بعضهم بعضاً نظرات كلها حدة ورعب شديد، ولاحظ الأتراك أنهم قد أثاروا عدواً شعر بأغلاطه وبالنير الذي وضعه على رقبته، لذلك تراجعوا قليلاً بناء على تلقي الأوامر من ملكهم، ونظراً لحلول الظلام فقد حال ذلك دون القتال، وبالإضافة الى هذا، بينما كانت معاهدة الصلح ماتزال معلقة، خشي الرجال العقلاء من عرض خياني، إذا ما جرى تدمير الصالح العام بوساطة قتال خطر.

الفصل الثامن والسبعون

وهكذا في اليوم الثلاثين من آب، أرغمنا على القبول بصلح مؤسف مذل بسبب الظروف المعاكسة، فاستسلمنا إلى المصريين والآشوريين، حتى يمكن أن نزود بالخبز ونطعم، وهكذا كان أن سبب فيضان الماء وقلة الطعام، وليس القوس أو السيف اذلالنا في أرض عدونا، وكان هذا أمراً مدهشاً، نعم لقد كان بالفعل شيئاً مثيراً للدهشة، شيئاً سوف يتم تداوله بالمعرفة في المستقبل: وفي الوقت نفسه ظهر الحكم الرباني العدل، وأشرق لطف الرحمة على شكل مساعدة موائمة، فلقد كانت ضخامة أفاعلينا الشريرة، والعدد الواسع لجرائمنا يرغمان على اتخاذ قرار انتقام رباني، لكن نبع الجودة والمنفعة الطبيعي، الذي من خصائصه أن يمتلك دوماً الرحمة والتخليص، لطف قرار الحكم العادل بحدته، ولهذا وقعنا في خطر،وتأملنا أنه بوساطة الرحمة، ربما ستظهر معجزة ويشرق نورها، «فالرب لايستأصل نفساً بل يفكر أفكاراً حتى لايقطع عنه منفيه».

(الملوك: ٢/ ١٤/ ١٤)، ذلك أن ملاك المشورة العظيم، تكلم من أجل صالح الانسان، مثل واحد بين آلاف يتضرعون من أجلنا، معلنا عدالة الانسان (انظر أيوب: ٣٣/ ٢٣)، فصحيح أننا قد نكون مذنبين، ومع ذلك، في سبيل حمل صليبه تركنا البيوت والآباء والزوجات والأخوان والأخوات والأبناء والحقول، وكان ذلك كله من أجل رضا الذي يظهر الغضب بهدوء، ويصدر أحكامه بلطف، ويعاقب بمحبة، فضرباته مثل ضربات الأب، لكن قلبه قلب أم.

الفصل التاسع والسبعون

وهكذا عندما وضعت الشروط، وفقاً لقرارات السلطان، جرى اكمال وثائق العقود بين الطرفين، وجرى حلف الأيمان، مع تسميه الرهائن، وبناء عليه وضع السلطان يده على ورقة تولى توقيعها، وأقسم وفق الصيغة التالية: « أنا، الكامل ملك مصر، أقسم بالله، رب الأرباب وبشريعتي، من قلب نقي، وبإرادة طيبة، وبدون موارية أو تردد، أنني سوف أرعى بايمان طيب جميع الأشياء التي كتبت في هذه الورقة، والتي تحتويها، وهي الموضوعة تحت يدي، وإذا لم أفعل ذلك لعلي أحرم من الحساب الأخير ومن صحبة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن أكون مؤمنا بالآب والابن وروح القدس»، ووفق هذه الصيغة أقسم الملك الأشرف وكذلك الملك المعظم مع أعظم الأمراء مكانة لديهم، انتبهوا تحت كم من الأخطاء الكثيرة والتناقضات تعمل بها تلك الأمة العمياء، فثلاث مرات أتوا على تسمية الرب، لكن دون معرفة بأسرار التثليث، وهم لايرضون بتمييز اسم الآب، واسم الابن، واسم الروح القدس، وذلك حتى يزيدوا من إدانتهم، ولو أنهم أقسموا خداعاً أو مع أي تردد وتقاطع، في شكل الطقوس، هم يقولون إنهم ليسوا تحت الإكراه، والآن احتوت هذه الكتابة على ترتيبات وفق مايلي: سوف يعيدون

الصليب(١١٥) الحقيقي مع جميع الأسرى الذين أسروا في أي زمان في مملكة مصر، أو جميع الصليبيين الموجودين تحت سلطان الملك المعظم، وأنهم عندما سيتسلمون دمياط مع كل ما يتعلق بها ويعودون إليها، سيدعوننا نذهب جميعاً بكل حرية ومعنا مقتنياتنا المنقولة، ولسوف يحافظون بشرف على هدنة لمدة ثمانية أعوام، وأقسم قادتنا أنهم سوف يطلقون سراح جميع الأسرى المسلمين لديهم، المسجونين في كل من مملكتي مصر والقدس، وإنهم سوف يعيدون دمياط، ما لم يرغب ملكنا المتوج بخرق الاتفاقية، يضاف إلى هذا جرى تقديم أربع وعشرين رهينة، تولى السلطان اختيارهم وهم: النائب البابوي، وملك القدس، ودوق بافاريا، ومقدمي بيوتات الفرسان الثلاثة، مع ثمانية عشر آخرين، ومن جانب آخر أعطي لنا ابن السلطان، وريث المملكة، وواحد من اخوانه الذين توفر منهم العديد، وأبناء العديد من النبلاء، وذلك حتى عودتنا إلى بوره (قرب دمياط) وإلى ميناء دمياط.

الفصل الثمانون

لتعلم جميع الأجيال المقبلة، أننا بالنسبة لوضعنا الخطر ولحاجتنا الملحة أبرمنا صفقة رائعة، آخذين بالحسبان أننا تمكنا من استراداد خشبة مخلصنا مقابل مدينة واحدة كان لايمكن للصليبيين أن يحتفظوا بها لوقت طويل ،وأن القمح أو الطحين عرضة للتلف هناك في أقل من سنة، وأنه بصعوبة يمكن لسيد مصر نفسه الحفاظ على سكانها، ثم إن آلافا مؤلفة من الأسرى، الذين بينهم نعد أنفسنا، من الأعلى إلى الأدنى قد أعيدوا إلى وضعهم الحر، وكان عندما دخل الامبراطور هرقل إلى فارس، قد استولى عليها بصعوبة بالغة بعد خمس سنوات متواليات، وقد هزم كسرى، وحمل صليب الرب في موكب نصر، وأعاد البطريرك زكريا إلى القدس مع الأسرى من شعبه، والآن كان السلطان يحتفظ ببطريرك

الاسكندرية(١١٦) بمثابة أسير، وكان رجلاً عظيم التقوى، وكامل الأخلاق، وقد أعاده وأرسله إلينا عندما كنا نسير عبر النيل، وقد حرره من أغلاله وخلصه من قذارة السجن، وأعلن أعداء الصليب أنهم قد خدعوا بهذه الاتفاقية، ورددوا قائلين إنهم استردوا مدينتهم دمياط، ودمروا القدس مع حصون أخرى من حصون هذه المملكة الرائعة، لكن الصليبيين عمروا واحداً من الحصون التي لاترام في فلسطين نفسها، وهو خطر جداً بالنسبة إليهم، وتمت عمارته على الرغم منهم، ولو أننا دمرنا دماراً كاملاً، أو وقعنا بالأسر بعد فقداننا لجميع ممتلكاتنا، وأيضا لو أن دمياط قد فقدت من دون أي تعويض، لباتت بقية البلاد التي بأيدي عبدة المسيح على حافة خطر حقيقي، لأن الذين بقيوا لحراسة دمياط، تركوا المدينة وفروا، ولم يهربوا لوحدهم، بل أيضاً عندما سمع الذين وصلوا حديثاً التقارير غير الموائمة هربوا عائدين، ووصل كونت مالطا(١١٧) إلى دمياط في حوالي نهاية آب ومعه أربعين شينيا، وكان القراصنة قد سلبوا اسبتارية القديس يوحنا والداوية بضائعهم،وقتلوا واحداً من النبلاء الفرسان،وواحداً من الرهبان الدينيين من الداوية، الذي كان يدافع عما عهد به إليه، وجرحوا راهباً آخر، وكان من فرسان التيوتون.

الفصل الحادي والثمانون

بدأ السلطان قبل إعادة دمياط بتنفيذ ماوعد به، فقد أمر بإطلاق سراح أسقف بوفياس المنتخب وبعض الأسرى الآخرين، وجلبهم إلى معسكرهم، وجرى إرسال مقدم جيش الداوية، ومقدم رهبان التيوتون (١١٨) من قبل القادة ليسلما المدينة تماشياً مع التعهد وتأكيدات أيمانهم، وتم تنفيذ هذا بدون صعوبات كبيرة، لأنه لم يكن بين الحجاج الجدد الذي كانوا يصلون آنذاك، رجلاً قوياً، ونشيطاً، أو مثابراً بما فيه الكفاية